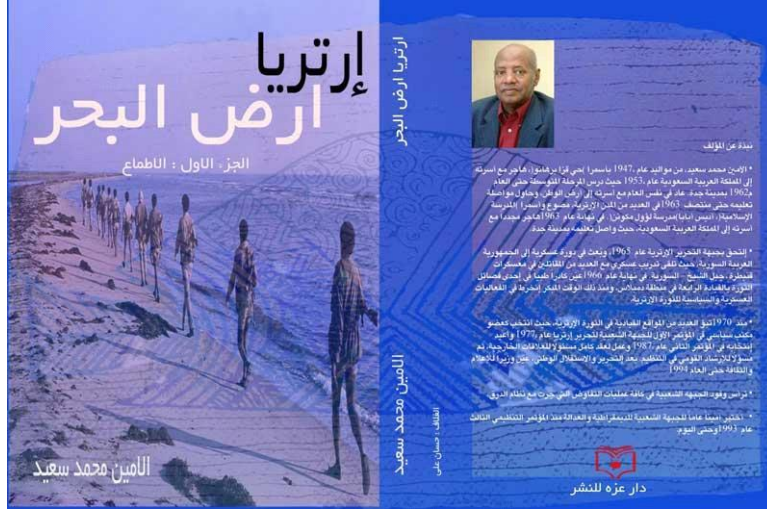


## كتاب " إرتريا أرض البحر "



**تنبيه:** ابتداء من هذا الاسبوع سنقوم وعلى حلقات بنشر كتاب " إرتريا أرض البحر " للكاتب الارترى المناضل الامين محمد سعيد، سكرتير الجبهة الشعبية للديمقراطية والعدالة. وهذا الكتاب هو الجزء الاول من سلسلة اجزاء مقبلة.

### الحلقة الاولى

### تقديم الجزء الاول . الاطماع .

بقلم: د.أحمد حسن دحلي

إن مؤلف هذا الكتاب هو الأخ الأمين محمد سعيد ذات الشخصية المتعددة الأبعاد، ولذا فمن الصعوبة بمكان اختزالها في عدة كلمات معدودة في هذا المقام والمقال. فهو مناضل كبير، وسياسي مخضرم، وديبلوماسي محنك، ومفاوض متمرس، وكاتب مبدع، وقبل هذا وذاك فهو إنسان في غاية البساطة والتواضع والتفاني والصمود والحزم في القضايا التي آمن ويؤمن بها وذلك على مدى ما يربوا على أربعة عقود من تاريخ التحاقه بالثورة الإرترية، أي منذ عام 1966 ولغاية هذه

الساعة. وما زال يواصل مسيرته الطويلة والشائكة والثرية والناضجة بالتضحيات والنضالات والإبداعات في سبيل حرية واستقلال ونمو ورقي ورفعة إرتريا شعبا وبلدا.

والى ذلك، يجدر التنويه الى ان كتابات وإبداعات الأخ الأمين تتهمر في جدول الإنتاج التاريخي والسياسي والأدبي الإرتري باستمرار وحيوية وغازة وعمق. فالكاتب اثرى المكتبة الوطنية بكتاب وثائقي تاريخي يحمل عنوان "الدفع والتردي"، سلط أضواء ساطعة على الثورة الإرترية وتناقضاتها الداخلية، ومنعطفاتها الحرجة، وتضاريسها المعقدة والمتشعبة. وان ذلك الكتاب الذي صدر في سبتمبر عام 1992م باسمرا أقام الدنيا ولم يقعدا بعدها، لكونه تطرق بجسارة ورشاقة لتلك المرحلة الحرجة وبالغة الدقة والحساسية من تاريخ إرتريا الثورة الذي يعتبر بمثابة معين لا ينضب، وعليه فلا غرو إذا كان معشر المثقفين والمؤرخين والسياسيين الإرتريين لهم آراء متباينة حتى التناقض في فهم وقراءة وتحليل بعض الأحداث التاريخية التي عالجها الأخ الأمين، وهذه حسنة تحسب للكاتب والكتاب على حد سواء، لأنها حركت بل أججت مياه بركة راكدة حتى التفسخ، وبعثت فيها دفء وتدفق الحياة بتعرجاتها وتضاداتها وتناقضاتها الصحية والطبيعية.

وإذا كان الكاتب الأمين نهض بدور باحث تاريخي في باكورة إنتاجه التاريخي - السياسي الذي وثق وحلل فيه تناقضات الثورة الإرترية، فانه وبعد تسع سنوات، وتحديدًا في عام 2001م صدر كتابه الثاني "تريد ارض إرتريا وليس شعبها - إرتريا والسلوك العدواني لحكام أثيوبيا -" عن دار "البحر الأحمر" بالولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا الكتاب قام الباحث بتحليل عميق ورصين لخلفية الحرب الحدودية الإرترية - الأثيوبية وتدايعياتها، كاشفا أسرارها الخفية والمتمثلة في أجندة نظام وياني أثيوبيا الويانوي التوسيعية والتخريبية، والتي كانت وراء إشعال حرب مدمرة بين البلدين من عام 1998م الى عام 2000م.

وبعد مضي عام واحد فقط من صدور كتابه الثاني، صدر في مايو عام 2002م عن دار "الأمانة" باسم كتابه الثالث "حق لا يقبل المساومة"، والذي وظف له المؤلف كل إمكانياته ومؤهلاته في رصد الأحداث الكبيرة والدقيقة في تسجيل وسرد وتحليل الوقائع التاريخية المتعلقة بعملية المفاوضات بين الجبهة الشعبية لتحرير إرتريا ونظام الدرق الأثيوبي البائد، وذلك بوضوح بالغ، وبموضوعية تامة، وبسلاسة فائقة.

والآن، هاهو الكاتب الأمين محمد سعيد لا يطرق هذه المرة بابا جديدا وحسب، وإنما ينهض بمشروع عمل إبداعي ضخم يغطي مساحة تاريخية طويلة وغائرة تبدأ منذ نهاية القرن التاسع عشر وتنتهي في مطلع القرن الحادي والعشرين. ويقع هذا الإنتاج الجديد في سلسلة من الأجزاء يبدأ بالجزء الأول المعنون بإسم "الأطماع".

وخلال هذا الجزء "الأطماع" تم استعراض الحياة التاريخية والسياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية الإرترية لمرحلة ما قبل مجيئ وبعد دخول المستعمر الإيطالي، بأسلوب أدبي مباشر وسهل وسلس ورشيق وجذاب للغاية، عبر شخصيات فنية تقوم بأدوار مختلفة في إطار العمل الأدبي والمهمات المناطة إليها. علما ان هناك مسحة خفيفة وخفية من السيرة الذاتية تضي نكهة خاصة على هذا العمل الأدبي. ولقد حرص الكاتب على ان تكون تلك اللمسة الذاتية بين السطور وان لا تطفو على السطح إلا في بعض المواقف النادرة وبصورة غير مباشرة أيضا، بحث انها ربما قد تشد انتباه هذا الباحث وستوقفه لكي يستنطقها، وربما يمر عليها مرور الكرام ذاك القارئ من دون شعور أو إحساس أو إدراك.

فعلى عكس المرات السابقة، فان الكاتب لجأ هذه المرة إلى الأسلوب الأدبي ليس لسرد الوقائع المتعددة الأبعاد والمتنوعة الأشكال، وإنما لرواية الأحداث على لسان أهل البلد أنفسهم من دون اسقاطات خارجية، وعبر إفساح الحرية للشخصيات التي نسجها الكاتب لكي تعبر عن نفسها، وتتنيط اللثام عن أغوار مشاعرها

الداخلية وأحاسيسها الدفينة، وتتحدث عن عاداتها وتقاليدها من دون رتوش وبلا حرج، وتعكس ظروفها الإقتصادية وأوضاعها الإجتماعية. وقبل هذا وذاك، فإن تلكم الشخصيات المحورية مسكونة بالهاجس الوطني، لا لشيء آخر، وإنما لكونها وليدة الأحداث التي زجت بها ومنذ نعومة أظافرها في خضم ومعمعة الغليان السياسي الذي اكتوت إرتريا بنيرانه السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي ما بين الحربين العالميتين.

ولقد وفق الراوي في رواية الأحداث في هذا الجزء الأول عبر شخصياته من دون أي تدخل سافر من طرفه لتوجيه دفة الأمور برغم حضوره، بحيث لا يشعر القارئ بان شخصيات العمل الأدبي مسلوبة الإرادة ومجردة من الحرية، بالعكس فإنها تتحرك باستقلالية، وتتحدث بطلاقة، وتفكر بحرية، وهنا تكمن الصعوبة كل الصعوبة في العمل الروائي أو في القصة.

صحيح نحن هنا لسنا أمام عمل أدبي من نسيج الخيال الخالص، بحيث نتوقع انفلات الشخصيات التام من رقابة الكاتب أو الروائي أو القاص سواء بصورة تدريجية، أو عبر ثورة عارمة، أو بطريقة عفوية، أو من باب الصدفة، أو من خلال انغماس وغرق وذوبان الراوي المطلق في المروي لدرجة التقاني والتلاشي، ولكن نحن هنا أمام عمل تاريخي وسياسي واقتصادي وثقافي مسرود في قالب أدبي، لا يستخلص من ذلك بأننا أمام إنتاج لا يلجأ أو يستخدم الخيال، بل كل مافي الأمر إن الخيال هنا وسيلة وليس غاية. وعليه فلا غرابة إذا ما تم توظيفه لاداء مهمة محددة للغاية، ألا وهي خدمة العمل الأدبي بكل أبعاده.

اعتمد الكاتب على عدة شخصيات لبلورة القضايا التي تناولها، فيعتبر إدريس محمد صالح جابر شخصيته المحورية، ويحرص على أن نتعرف عليه ويعرفنا من خلاله بصورة فنية وغير مباشرة عن الوضع العام في إرتريا بقوله "لم يكن إدريس الإبن البكر للشيخ محمد صالح يفقه ما يرويه والده من سياسة مصادرة الأرض

... التوطين ... والإيطاليين نظرا لصغر سنه، اذ لم يكن قد بلغ الثانية عشر من عمره، وقصر مداركه. وكل همه كان منصبا في كيفية إجادة لعبة "البيب" و "القرشبع" ... بهدف التفوق على اقرانه، والتباهي أمام والده وأعمامه. إلا إن إدريس ومن ناحية ثانية كانت تستهويه الحكايات الشعبية التي كانت ترويها له جدته حليلة، مثل حكاية "الراعي والغنم والذئب" وحكاية "سهيل الذي كان يبحث عن خطيبته التي اختطفها عملاء الرقيق". وكان شديد الإعجاب بجسارة "سهيل" في مقاومة الأشرار.

وهكذا يأخذ الكاتب بتلابيب يدنا لكي نتوقف ونرصد حقيقة وطبيعة شخصيته المحورية التي تتحلى بالواقعية، وتكاد سماتها الأساسية تنسحب على كل أطفال إرتريا عامة، وتتطبق على وجه الدقة على أطفال مدينة مصوع والقرى المحيطة بها، ويعزي ذلك لكون إدريس محمد صالح هو أحد أبناء قرية حليب الخيالية الواقعة على بعد بضعة كيلومترات من ميناء مصوع. ومع نمو وتبلور شخصية إدريس وصديقيه اسماعيل عمريت وحقوص ارعدوم تنمو وتتبلور الأحداث السياسية الكبيرة التي عصفت بإرتريا، ونقصد بها قدوم المستعمر الإيطالي الى إرتريا في نهاية القرن التاسع عشر، والحقبة الفاشية من العهد الإستعماري الإيطالي، ودخول إرتريا تحت الإنتداب البريطاني بعد نهاية الحرب الكونية الثانية، ونسج خيوط المؤامرة الفيدرالية بين إرتريا وأثيوبيا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وتقارخ الأحزاب السياسية الإرترية وادارة صراعاتها الداخلية من قبل القوى الدولية، لمحاصرة وخنق وإجهاض المشروع الوطني الإرتري، وفشل القوى الوطنية الإرترية في تعرية وإحباط المخططات الدولية والإقليمية من ناحية، وعدم قدرتها على لملمة القوى الوطنية الإرترية وتوحيد شمل الصف الوطني الإرتري بصهره في بوتقة مشروع وطني واحد، بغية العبور بسفينة الوطن، في وسط كل تلك الأمواج المتلاطمة، الى بر الأمان.

ففي ظل هذه الظروف وتلك المعطيات لا عجب إذا ما خلت الساحة الإرترية للسلطات الأثيوبية من أي حسيب ورقيب من قبل أي طرف من الأطراف الدولية والتي كان بالأساس من العبث الرهان عليها وعلى دورها في هذا الصدد بأي حال من الأحوال، بحكم إنها عمليا هي التي حاكت المؤامرة السياسية القاضية بمصادرة حق الشعب الإرتري الشرعي والمشروع في تقرير المصير، على غرار بقية المستعمرات الإيطالية في القارة السمراء، اي ليبيا والصومال. فغدت أثيوبيا الإمبراطورية رويدا رويدا تتماذى في انتهاك بنود ونصوص الإتحاد الفيدرالي، وتزامن ذلك مع تخييم شبخ عدم الإطمئنان والإستقرار، بعد ما بث رجال الأمن الأثيوبيين وعملائهم الخوف والقلق والهلع في شتى أرجاء البلاد، وأضحوا يزجون بعشوائية في غياهب السجون المكفهرة والكئيبة كل مواطن إرتري لا لجريمة اقترفها، وانما لمجرد الشك في كونه عنصرا وطنيا، ثم الشروع في ممارسة ابشع وافظع أشكال التعذيب البدني والنفسي ضده. ففي ظل سيادة هذه الأجواء السياسية المأزومة والمتأزمة، لا غرابة إذا ما سقط إدريس وحقوص واسماعيل في حبال عناصر الأمن الأثيوبية التي كانت تتعقب تحركاتهم وترصد سكناتهم وتتابع نشاطاتهم الوطنية المناهضة لربط إرتريا بسلسلة الفيدرالية مع أثيوبيا، فما بالك إذا كان الأمر يتعلق بإذابة الهوية الإرترية في الكيان الإثيوبي.

وهكذا ذاق الأصدقاء الثلاثة وعلى مدار سبعة اشهر كاملة الأمرين في سجون أثيوبيا التي بارحوها ذات يوم من أيام شهر يوليو عام 1956م ليعانقوا شعاع شمس الحرية المقيدة، وليلاحظوا بان الحياة الإقتصادية ازدادت ترديا وتدهورا بحث أمست لا تطاق، هذا علاوة على إدراكهم بأنهم ومنذ فجر خروجهم من السجن يوجدون تحت قيد المراقبة الدائمة المرهقة عصبيا والمنهكة نفسيا.

جملة هذه الظروف السياسية والإقتصادية جعلت إدريس وحقوص واسماعيل في التفكير في هجرة الوطن الى السودان بغية توفير لقمة عيش شريفة وآمنة من

ناحية، ولكي يواصلوا نضالهم السياسي ضد أثيوبيا من ناحية أخرى. وهكذا اختلق إدريس حيلة الذهاب إلى مدينة كرن للمشاركة في عرس أحد أقربائه، ولم يمكث فيها إلا سويغات معدودة وذلك حتى لا يكشف أمره، فغادرها على وجه السرعة قاصدا مدينة اغوردات، قبل أن يستقر به المقام بمدينة كسلا السودانية بعد رحلة ماراتونية مشوبة بمشاعر الخوف والقلق من جانب، ومحفوفة بتباشير أمل كبير في بداية حياة جديدة وطرق أبواب مواصلة النضال بأسلوب مختلف من جانب آخر.

ولم يبق إلا التنويه إلى أن الأخ الأمين محمد سعيد لم يعتمد في عمله الأدبي الجديد على شخصية واحدة تروي الأحداث الكبيرة منها والصغيرة كما هو الحال في بعض الروايات الأحادية البعد والأفق، وإنما وعلى عكس ذلك خلق سيمفونية رائعة وخلابة بين الشخصية المحورية، إدريس محمد صالح، والشخصيتين الأساسيتين في حقوس ارعدوم واسماعيل عمريت، وشخصيات عامة وأخرى عرضية مثل الشيخ محمد صالح جابر وزوجته ملوك عبدالقادر وترحس وفاطمة ولؤلؤ ونجاش... الخ، وكل تلك الشخصيات تملك مبرر وجودها في سياق مجريات تطورات الأحداث التي تسلط عليها الأضواء الساطعة في معظم الأحيان، وتلقي عليها بظلالها المواربة في بعض الحالات.

والمهم في الأمر، ان هذه الشخصيات تكشف بدورها ليس عما يختلج في صدرها، أو ما يدور في ذهنها، أو ما يتفاعل في نفسها فقط، بقدر ما تم أيضا توظيفها من قبل الكاتب في سبر أغوار العادات والتقاليد الإرترية انطلاقا من مجريات الأمور اليومية العادية في أسرة إدريس في السهول الشرقية وترحس في المرتفعات الوسطى، ومراسيم الزواج التي أبدع الكاتب في رصدها بصورة ممتعة ومبدعة وغاية في الدقة، وتوغل وتغلغل في جزئيات تفاصيلها الدقيقة إلى ابعدها الحدود، بما يوحي برسم صورة حية وناطقة عن سريان وتدفق المشاهد وانسيابها بسلاسة وتألّق

واحكام. وهذا يدل وبصورة ناصعة، بان الكاتب يملك موهبة وكفاءة وناصية تقديم عمل أدبي يملك مبرر وجوده في ذاته، ولا يكون طافحا بعبء التاريخ وتموجات السياسة ولا حافلا بقضايا الإقتصاد وإشكاليات الثقافة، وقد يكون ذلك إحدى مفاجآت الأخ الأمين محمد سعيد الأدبية القادمة.

د. احمد حسن دحلي

باريس: 7 مارس 2007م.